الفصل الرابع عشر

قيام الليل

لليل أسراره ومعانيه وأهدافه الكثيرة، فمنهم من جعل الليل مكاناً ليلهو في السمر واللعب والضحك والرقص، ومنهم من جعل الليل بوابة كبيرة لرغباته الجشعة كالسرقة، ومنهم من جعل الليل ستاراً بينه وبين الناس فيفعل ما يحلو له بعيداً عن الضوء وعن الناس. ومنهم من جعل الليل رباطاً نورانياً بينه وبين خالقه، فعلَّمهم الليل معنى التذلل وحب السكون للمحبوب، وأخذوا دروساً في الصبر على الطاعات فتكلَّموا بأحلى اللغات لغة العاشقين.

عن أبي أمامة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «**عليكم بقيامِ الليلِ فإنهُ دأبُ الصالحينَ قبلَكُمْ وهوَ قربةٌ إلى ربّكم ومُكَفرَةٌ للسيئاتِ منهاةٌ عن الإثم**»[1].

شرح الحديث:

عليكم بقيام الليل فإنه اجتهاد الصالحين، وهذا الأمر أوصلهم إلى مرضاة الملك القدوس رب العالمين.

ومن حافظ على قيام الليل يكتسب نور الصفاء من نور المولى، ويمحو الله سيئاته ويبتعد عن الآثام لأن من يحفظ أمر الله تعالى في الليل يحفظه الله في النهار.

---

(١) رواه الترمذي.

الدليل القرآني

مدح الله تعالى قائمي الليل أنهم من محبتهم لا يستطيعون النوم لقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السَّجدَة، الآية: ١٦] .

يرفع الله تعالى أهل العمل وخصيصاً عند صلاة الليل لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ [الزُّمَر، الآية: ٩] .

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المُزمّل، الآية: ٦] .

ماذا تقول عند النوم

عن البراء بن عازب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، فإن مت من ليلتك فأنت على الفطرة واجعلهن آخر ما تتكلم به»**[(١)].

مقام من قام الليل

عن عبد الله بن عمر ﷺ عن النبي ﷺ: **«إن في الجنة غُرَف يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها»**.

فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟

قال: **«لمن أطاب الكلام وأطعم الطعام وبات قائماً والناس نيام»**[(٢)].

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه**

---

(١) البخاري ومسلم.

(٢) رواه الطبراني.

إياه وذلك كل ليلة»[١].

الله ينور أهل القيام

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فإن أبت نضح في وجهها الماء رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها فإن أبى نضحت في وجهه الماء**»[٢].

ورد في بعض الآثار أن الله تعالى ينادي: يا جبريل أيقظ فلاناً فإني أحب أن أسمع صوته يا جبريل لا توقظ فلان إني أكره أن أسمع صوته، إن لي عباداً يحبوني وأحبهم ويشتاقون إلي وأشتاق إليهم ويذكروني وأذكرهم وينظرون إلي وأنظر إليهم فإن حذوتَ طريقهم أحببتك وإن عدلتَ عنهم مقتك وبغضتك.

قال: يا رب ما علامتهم؟

قال: علامتهم يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها.

فإذا جنَّهم الليل واختلط الظلام وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إليّ أقدامهم وافترشوا إلي وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إليّ بإنعامي، فبين صارخ وباك وبين متأوه وشاك بعيني ما يتحملون من أجلي وبسمعي ما يشكون من حبي، أول ما أعطيهم:

١ ـ أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم.

٢ ـ لو كانت السمٰوات السبع والأرضون وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم.

أقبل بوجهي عليهم، أَفَتَرى من أقبلت بوجهي عليه أيعلم أحد ما أريد أن أعطيه[٣].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه.
(٣) قيام الليل وأسراره.

الأسباب الميسرة لقيام الليل

١ ـ أن لا يكثر الأكل فيكثر الشراب فيغلبه النوم ويثقل عليه القيام.

كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول: معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً فتشربوا كثيراً فترقدوا كثيراً فتتحسروا عند الموت كثيراً.

يروى أن إبليس بدا ليحيى بن زكريا عليه السلام وعليه معاليق.

فقال له يحيى: ما هذه المعاليق؟

قال: هذه الشهوات التي أتصيد بها بني آدم.

فقال له: هل وجدت لي فيها شيئاً؟

فقال: نعم شبعت ليلة فثقلناك عن الصلاة بالليل.

فقال يحيى: لا جرم لا أشبع بعدها أبداً.

فقال إبليس: لا جرم ولا نصحت أحداً بعدك أبداً.

٢ ـ أن لا يتعب نفسه بالنهار بالأعمال الشاقة التي تضعف بها الأعصاب فإنه مجلبة للنوم.

٣ ـ أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل، قال عليه الصلاة والسلام: «**استعينوا بطعام السحر على صيام النهار وبالقيلولة على قيام الليل**»[1].

الأسباب المعينة لقيام الليل

١ ـ الابتعاد عن الذنوب

عليك الابتعاد في النهار والليل عن الأوزار والذنوب لأن ذلك يقسي القلب ويحول بينك وبين نفحات الرحمة الإلٰهية، قال رجل للحسن: يا أبا

(١) رواه ابن ماجد.

سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعدّ طهوري ـ أي أنام على طهور ودعاء ـ فما بالي لا أقوم؟

قال الحسن: ذنوبك قيدتك[١].

قال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم.

٢ ـ تطبيق السنة في النوم

١ ـ النوم والحرص على الأذكار الشرعية فإنها تزيد علاقة العبد بربه.

٢ ـ النوم على الجانب الأيمن.

لقد بيَّن العلامة ابن القيم السبب في ذلك فقال:

وفي اضجاعه على شقِّه الأيمن سر، وهو أن القلب معلق في الجانب الأيسر، فإذا ما نام الرجل على الجانب الأيسر استثقل نوماً لأنه يكون في دعة واستراحة فيثقل نومه. فإذا نام على شقه الأيمن فإنه لا يستغرق في النوم لقلق القلب وطلبه مستقرة وميله إليه، ولهذا استحب الأطباء النوم على الجانب الأيسر لكمال الراحة وطيب المنام.

وصاحب الشرع يستحب النوم على الجانب الأيمن لئلا يثقل نومه فينام عن قيام الليل، فالنوم على الجانب الأيمن أنفع للقلب وعلى الجانب الأيسر أنفع للبدن والله أعلم[٢].

٣ ـ سلامة القلب من الحقد على المسلمين وعن البدع وعن فضول هموم الدنيا.

قال عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: «**يا أبا ذر لو أردت سفراً أعددت له عدة**»؟.

قال: نعم.

---

(١) إحياء علوم الدين.

(٢) زاد المعاد: ج ١، ص: ١٢١.

قال: «**فكيف سفر طريق القيامة؟ ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك في ذلك اليوم**»؟

قال: بلى بأبي أنت وأمي.

قال: «**صم يوماً شديد الحر ليوم النشور، وصلِّ ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور، وحج حجة لعظائم الأمور، وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمة حق تقولها أو كلمة شر تكت عنها**».

قال سفيان الثوري: حرمت قيام الليل خمس أشهر بذنب واحد، قيل: ما هو؟

قال: رأيت رجلاً يبكي، فقلت: هذا مراءٍ ـ أي صاحب رياء وسمعة ومباهاة أمام الناس ـ لأنه سبحانه حرم أن يظن الإنسان بأخيه ظن السوء.

٤ ـ أكل مال الحرام يمنع من قيام الليل.

جاء رجل عند إبراهيم بن أدهم فقال: يا إمام إني لا أقوم لصلاة الليل، فقال سيدنا إبراهيم: لا تعصيه بالنهار وهو يقيمك بين يديه في الليل فإن وقوفك بين يديه في الليل من أعظم الشرف، والعاصي لا يستحق هذا الشرف.

رأى بعضهم حوراء في نومه، فقال لها: زوجيني نفسك.

قالت: اخطبني إلى ربي وأمهرني.

قال: وما مهرك؟ قالت: طول التهجد.

وصايا لأبي هريرة

قال عليه الصلاة والسلام: «**يا أبا هريرة أتريد أن تكون رحمة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً؟ قم من الليل وأنت تريد رضا ربك، يا أبا هريرة صلِّ في زوايا بيتك، يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا**»[1].

(١) مكاشفة القلوب.

روي أنه كان على عهد النبي ﷺ رجلاً إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول: يا رب النار أجرني منها.

فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**إذا كان ذلك فآذنوني**». فأتاه فاستمع ـ أي استمع النبي دعاء الرجل وبكاءه ـ فلما أصبح قال: «**يا فلان هلا سألت الله الجنة**»؟

فقال: يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزل جبريل عليه السلام وقال: أخبر فلاناً أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة[١].

قائم الليل يُحسد

عن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار**»[٢].

قال طلحة بن مصرف: بلغني أن العبد إذا قام من الليل للتهجد ناداه ملك: طوبى لك سلكت منهاج العابدين قبلك.

قال: وإن ليلته تلك لتوصي الليلة الأخرى أن أيقظيه في وقته الذي قام فيه.

وقال: ويتناثر عليه البر من أعنان السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد: لو يعلم المناجي من ينادي ما انفتل ـ أي ما ترك الدعاء لأنه يتكلم مع الله تعالى والله يتجلى على قلبه ـ.

قيام الليل عند سيدنا إبراهيم بن أدهم

حكي أن سيدنا إبراهيم بن أدهم كان يقول: إلٰهي أرني جليسي في الدنيا ورفيقي في الجنة.

---

(١) قيام الليل وأسراره.
(٢) رواه مسلم.

فرأى في المنام أن اذهب إلى البصرة وأطلب سلامة السوداء فإنها زوجتك في الجنة، فمضى إبراهيم إلى البصرة فقال لبعض الناس: هل ها هنا امرأة عالمة زاهدة اسمها سلامة السوداء؟

قيل: لا، قال: هل ها هنا ما ذكرت اسمها؟

قيل: بلى ها هنا امرأة مجنونة معتوهة وهي ترعى الغنم.

فقال: أين أجدها؟

قيل: اخرج خارج البلدة فإنها هناك. فمضى فإذا هي واقفة على باب البلدة وهي تناجي الله ﷻ وتحت التل سائحة من الغنم ترعى ومعها الذئاب، فصعد التل وقال: السلام عليك يا سلامة السوداء.

فقالت: وعليك السلام يا إبراهيم بن أدهم.

فقال: من أخبرك باسمي؟

فقالت: من أخبرك أنك في الجنة تكون زوجي.

فقال: يا سلامة أرى عجباً الصلح بين الغنم والذئب؟

فقالت: يا إبراهيم أصلحت بيني وبين ربي فأصلح الله ما بين الذئب والغنم، فدنوت منها أقرب مما كنت فقالت: تنحَّ عني، غداً الموعد في الجنة.

فقلت: عظيني، فولت عني وقالت: كذب من ادعى محبتي وإذا جنَّه الليل نام عني.

فعلمت أنها تأمرني بقيام الليل.

ونام إبراهيم بن أدهم ليلة في بيت المقدس فسمع صوتاً من جانب الصخرة يقول: قيام الليل ليطفىء لهب النار ويثبِّت الأقدام على الصراط، فلا تتساهل في قيام الليل، فما تركه بعد ذلك حتى مات[1].

(١) قيام الليل وأسراره.

رائحة الجنة حق لأهل القيام

وفي الحديث: «إن الجنة تفتح في كل ليلة من السحر فينظر الله إليها ويقول لها: ازدادي طيباً فذلك برد السحر الذي يجده الناس».

قيل إن داود عليه السلام قال: يا جبريل أي الليل أفضل؟

قال: لا أدري غير أن العرش يهتز إذا كان من السحر ألا ترى أنه يفوح ريحُ كلِّ الشجر[1].

قيام الليل عند أبي يزيد البسطامي

يحكى أن أبا يزيد البسطامي جلس وأبوه يقرأ القرآن فلما وصل إلى سورة المزمل وقرأ: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣﴾ [المُزمّل: الآيتان ٢،٣] .

قال لأبيه: من هذا الذي أمره الله بقيام الليل؟

فقال: يا بني هذا محمد ﷺ.

فقال: فلمَ لا تفعل كما فعل محمد ﷺ؟

قال: ذاك أمر شرَّف الله به محمداً ﷺ، فلما قرأ: ﴿وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ [المُزمّل، الآية: ٢٠] .

قال: يا أبت من هؤلاء؟

فقال: يا بني هؤلاء أصحاب محمد ﷺ.

فقال: يا أبت ولمَ لا تفعل كما فعل أصحاب محمد ﷺ؟

فقال: يا بني قواهم الله على قيام الليل.

فقال: يا أبت لا خير فيمن لا يقتدي بمحمد وأصحابه، فصار أبوه يصلي قيام الليل.

---

(١) لطائف المعارف.

قيل: كان يزيد البسطامي صغيراً فاستيقظ ليلة فرأى والده قائماً يصلي.

فقال له: يا أبتِ علمني كيف أتطهر وأصلي معك.

فقال: يا بني ارقد فإنك صغير.

فقال: يا أبتِ إذا كان يوم القيامة أقول لربي: يا رب قلت لأبي علمني كيف أتطهر وأصلي معك فقال لي: ارقد فإنك صغير.

فقال أبوه: لا والله يا بني، وعلَّمه فكان يصلي معه في كل صلاة، رحمة الله تعالى عليهم[١].

التابعي الجليل صِلة بن أشيم العدوي لا ينام الليل

صِلة بن أشيم العدوي عابد من عبَّاد الليل وفارس من فرسان النهار.

حكى جعفر بن زيد قال: خرجنا مع جيش من جيوش المسلمين في غزاة إلى مدينة كابُل رجاء أن يفتحها الله لنا، وكان في الجيش صِلة بن أشيم، فلما حلّ الظلام حط الجند رحالهم وأصابوا شيئاً من الطعام وأدّوا العشاء الأخيرة وناموا، فقلت في نفسي: أين الذي يتكلمون عن عبادته وطول قيامه حتى تتورم قدماه؟ والله لأنظرن إليه الليلة ماذا يفعل، فما أن غرق الجند في نومهم حتى رأيته يستيقظ من رقدته ويبتعد عن المعسكر ويدخل في غابة باسقة الأشجار كأنها لم تطأها قدمان منذ دهر طويل، فمضيت وراءه، فلما بلغ منها مكاناً واسعاً اتجه إلى القبلة وكبر للصلاة واستغرق فيها فنظرت إليه من بعيد، فرأيته مشرق الوجه ساكن الأعضاء هادىء النفس كأنما يجد في الوحشة أنساً وفي البعد قرباً وفي الظلمة ضياء منيراً، وفيما هو كذلك طلع علينا أسد في الجانب الشرقي للغابة فما زال الأسد يدنو من صلة بن أشيم وهو غارق في صلاته حتى أصبح على قيد خطوات منه، فوالله ما التفت إليه ولا اهتم به، فلما سجد قلت: الآن

(١) نوادر الأخبار للأنباري.

يفترسه، فلما نهض من سجوده وجلس وقف الأسد بإزائه[١] كأنه يتأمله، فلما سلم نظر إلى الأسد في سكون وحرك شفتيه بكلام لم أسمعه، فإذا الأسد ينصرف عنه في هدوء ويعود من حيث جاء.

ولما انبلج[٢] الفجر نهض فأدى المكتوبة، ثم أخذ يحمد الله ﷻ بمحامد لم أسمع مثلها قط، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، وهل يجترىء عبدُ خاطىء مثلي أن يسألك الجنة؟ وما زال يكررها حتى بكى وأبكاني، ثم رجع إلى الجيش دون أن يفطن له أحد، وعدت في أثره وبي من سهر الليل وتعب الجسم وخوف الأسد ما الله به عليم.

زوجة صلة بن أشيم من قائمي الليل

لقد كانت لصلة بن أشيم ابنة عم تدعى «معاذة العدوية» وكانت هي الأخرى تابعيّة مثله حيث لقيت أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها، وكان من عادتها إذا أقبل عليها الليل أن تقول: قد تكون هذه آخر ليلة لي فلا تنام حتى تصبح، وإذا أقبل عليها النهار تقول: قد يكون هذا آخر يوم لي فلا يطمئن لها جنبُ حتى تمسي، وكانت تلبس رقيق الثياب في فصل الشتاء حتى يمنعها البرد من الركون إلى النوم والانقطاع عن العبادة، وكانت تحيي الليل بالصلاة وقراءة القرآن، فإذا غلبها النعاس قامت فجالت في الدار وهي تقول: أمامك يا نفس نوم طويل، غداً تطول رقدتك في القبر، إما على حسرة وإما على سرور، فاختاري يا معاذة لنفسك اليوم ما تحبين أن تكوني عليه غداً.

ماذا فعل صلة بن أشيم في ليلة زفافه مع معاذة

خطب صلة ابنة عمه معاذة لنفسه، فلما كانت ليلة زفافهما، قام ابن أخ لصلة بن أشيم وأخذ عمه صلة إلى الحمام، ثمّ أدخله عليها في بيت

(١) بإزائه: أمامه.
(٢) انبلج: أشرق.

مطيّب، فلما صارا معاً قام يصلي الركعتين المسنونتين في ليلة الزفاف فقامت تصلي بصلاته وتقتدي به، ثمّ اجتذبهما سحر الصلاة فمضيا يصليان معاً حتى برق الفجر، فلما كان اليوم الثاني جاءه ابن أخيه وقال: يا عم لقد أُهديت إليك ابنة عمك فقمت تصلي الليل كله وتركتها، فقال: يا ابن أخي إنك أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار ثم أدخلتني بيتاً آخر أذكرتني به الجنة. فما زالت فكرتي فيهما حتى أصبحت.

فقال الفتى: وما ذاك يا عم؟

فقال: لقد أدخلتني الحمام فأذكرني حرّه حر جهنم، ثم أدخلتني بيت العرس فأذكرني طيبه طيب الجنة[1].

ما يرشد إليه الحديث تربوياً ودعوياً:

- الحفاظ على قيام الليل لأنها من صفات المحبين والأولياء المقربين، وعلامات رضا المولى على عبده أن يحافظ على قيام الليل ويشعره بلذة مناجاته وحلاوة طاعاته، وإذا أراد الله ﷻ أن يعاقب عبداً على تقصيره حرمه قيام الليل ولذة المناجاة، ولا يشعر بالعقاب إلا أهل الذوق والوصال.

كلمات من عاشقي الليل

سألوني عن الليل

ولمَ أحب الليل

قلت: الحب فيه ـ القرب فيه والأنس فيه.

قالوا: أحببنا مثلك الليل

ما أنسنا بالليل

ولا تقرب منا الحبيب

---

(١) صور من حياة التابعين.

قلت: هواكم غير هواي
وحبكم غير حبي
أحببت حبيباً لم يملني
أناجيه يسمعني
إليه أشكو همي
كل يوم إليه يقربني
إن عصيته يسترني
إن رجعت إليه يقبلني
هو حبيبي والليل به يجمعني
قالوا: زيدينا حباً زيدينا
وعن حبك له حدثينا
قلت: أحبه مذ عرفته
قالوا: كلميه عن حبنا
قلت: نبض القلب بيده
ولا تشغلوا قلبكم بغيره
إذ يعلم نبضات قلوب خلقه
فأطيعوا أوامره
وأنسوا بذكره
وتعلموا أدب حبه
تصلوا إلى درجات قربه
وعن الليل لا تسألوني
وسري عندكم لا تفضحوني

obeikandl.com